



آخر لحظات

عاد من العمل متأخرًا، فدخل بيته، واحتضن أطفاله، وبعد أن أودعتهم أمهم في غرفتهم عادت لتسأله عن يومه؟ وفي منتصف حديثهما أحسّ بغثيان وألم شديد في رأسه، فذهب ليتناول حبة مسكن؛ لكي تخفّف هذا الألم المفاجئ، وإذا بزوجته تسمع ضجّة في الغرفة، فهرعت إليه، فوجدته ملقى على الأرض مغشيًا عليه.

بعد ساعات في المستشفى جاءها الطبيب منكسًا رأسه، وقال لها: «زوجك يعاني سرطانًا في المخ»، فسقطت هي الأخرى مغشيًا عليها، وعندما استيقظت، وتذكرت ما مرّ بها خلال الساعات الأخيرة ظنت أنها كانت تحلم، ولكن عندما رأت «بعض» أفراد أسرتها ملتفين حول سريرها يبكون، أيقنت أن الكابوس أصبح حقيقة.

لم تستطع أن تستوعب الصدمة التي نزلت عليها مثل الساعة، فأمس كان زوجها يداعب أطفاله، ويضحك معهم، وقبل أيام حجز لأسرته رحلة سياحية في الصيف، وقبل أسبوع اشترى سيارة جديدة كان يحلم بها منذ كان طفلًا، وقبل أسبوع أيضًا وعدها بأن يمارس الرياضة، ويهتم بنفسه.



فقد أصابته حمى قبل مدة ورمته طريقاً في الفراش أكثر من أسبوع، وعلى الرغم من أن طبيبه لم يعرف سبب الحمى، لكن أكد له أنها ردّة فعل طبيعية من الجسم تجاه ضغوط العمل التي يتعرض لها.

وبعد أن رحلت الحمى غير بعيد وعد زوجته بأن يعمل خلال ساعات العمل فقط، وأن يأكل ثلاث وجبات في اليوم، وأن يحافظ على ممارسة الرياضة كل يوم، وعدها بأن يعود إنساناً مثلما كان، فبعد أن سلبته الحياة إنسانيته، ومنحته مقابل ذلك مادياتها التي لا تنتهي، انتبه إلى أنه لا يعرف كم عمر أحد أبنائه، وعندما سُئل مرة عن الفصل الذي تدرس فيه ابنته فوجئ بأنه لا يعرفه، بل فوجئ أكثر عندما حاول أن يتذكر اسم مدرسة ابنته، فلم يستطع.

استيقظ بعد أيام في المستشفى، ورأى زوجته تبكي، وعندما أخبروه بأن حالته المرضية متأخرة جداً بكى هو أيضاً، بكى حتى ابتلّ سريره، وابتلت معه ثياب زوجته التي لم تستطع أن تكفّ عن الموت معه في كل لحظة.

أرسل الأطباء تقاريره إلى أحد المستشفيات العالمية، فجاء الجواب: ليبق في بلده، فموته لن يتأخر، عندها صارحه الطبيب قائلاً: أستطيع أن أخدعك، وأقول لك: إن هناك أملاً، ولكن واجبي يحتم علي أن أخبرك بالحقيقة.



..... غير طريقة تفكيرك يتغير العالم من حولك

فستدخل في غيبوبة خلال الأسابيع المقبلة، ومن ثم ستموت؛ لأن المرض قد استقحل في جسدك، ولم تعد هناك فائدة من الأدوية، فسنكتفي بالمسكنات، حتى يحين الوقت، أنا آسف، وأشاح بوجهه، وعيناه تفيضان بالدموع. الطبيب لا يعرفه، ولكنها لحظة إنسانية تجردنا من جميع أقتعة الحياة، وتجبرنا على التعامل معها، وكأننا أطفال كبار.

في نيوزيلندا تقدر إحصائيات دائرة العمّال إصابة الموظفين بأمراض مزمنة وخطيرة بنحو عشرين ألف إصابة كل عام، منها ألف إصابة بأمراض السرطان، كسرطان الرئة والدم وغيرها، حيث يكون مصير ما نسبته ٤٠٪ من هذه الحالات الوفاة، والسبب الرئيس هو ضغط العمل.

وعلى الرغم من أن نيوزيلندا، وغيرها من الدول تحاول جاهدة أن تقلل من خطر ضغوط العمل على أبنائها، ولكن جميع تلك الجهود تُعدّ زوبعة في فئجان، فتمط الحياة الجديدة، السريعة المندفعة، ومتطلبات المنافسة العالمية المحتدمة ليس بين الدول والشركات فقط، بل بين الأفراد أيضًا، فرضت نفسها بوصفها لاعبًا رئيسًا في حياة الناس والشعوب.

إن حياتنا لم تعد ملكًا لنا، فلقد أصبحنا نعيش من أجل المستقبل، ذلك البعيد الذي قد لا نصل إليه، وإن وصلنا إليه



فقد لا نراه. كل يوم يستيقظ صديقنا من نومه، وهو يفكر في الموت، ويتذكر جميع تفاصيل حياته. تذكر أنه لم يتبضع من الجمعية التعاونية منذ سنوات، وحاول أن يتذكر اسم إمام المسجد الذي كان يصلي فيه، ولكنه لم يستطع.

تذكر أنه لم يعد يرى أمه وأباه كل يوم، كما جرت عليه العادة، بل إنه لم يرَ أمه منذ ثلاثة أشهر؛ لانشغاله بالسفر وبأعباء الوظيفة، تمنى في تلك اللحظة لو أنه يراها، فيبكي عند قدميها؛ ليشفي غليله من الأيام التي أنسته، حتى رائحة عباؤها العبقة ببخور الماضي وبطمأنينة الحاضر.

كل يوم يمرّ عليه يعي قيمة الأشياء من حوله، ويعي تفاهة الأشياء أيضاً. كان يتمنى أن يقود سيارة ما، وها هو يحقق حلمه، ولكنه نسي أن يتمنى ألا يطغى حبّ الأشياء في قلبه على حب الأشخاص. كلما أراد أن يكتب وصيته يتذكر أنه مازال في مستقبل العمر، ويتذكر الحكمة التي تقول: إن موت الشباب كسفينة تتحطم، وموت الشيوخ كسفينة ترسو في الميناء، وها هو جالس في غرفة هادئة مظلمة، كسفينة تتحطم في الميناء، دون أن تثير موجاً أو حتى تحرك ساكناً.

تذكر مرة قول المتنبّي:

وإذا لم يكن من الموت بدُّ فمن العجز أن تموتَ جباناً



غير طريقة تفكيرك يتغير العالم من حولك.....

ولكنه لا يعرف هل سيذكره الناس من بعده، أم أنه سينتهي جباناً، كما تنتهي الشاة، وسيبقى مجرد اسم بارد باللون الأحمر في دفتر العائلة والسبب «الوفاة»!

تذكر أن سقراط عندما عرض عليه حارس السجن أن يهرّبه رفض، وقال لأصحابه: قولوا: إنكم توارون في التراب جسدي فقط، فكيف يتخلّى عن أفكاره، وهو الذي صارع من أجلها طوال حياته؛ لتبقى بعد مماته، وتمنى لو أنه كان ذلك الحارس على الأقل، الذي بفضل سقراط ذكر في كتب التاريخ.

تذكر جميع مشروعاته وإنجازاته وجميع اجتماعاته وصفقاته وجميع كلماته وخطاباته، وأيقن أنه لا أحد سيتذكرها، وكل ما قد يقوله الناس: عَلَّمَ اللَّهُ... حتى هذه قد يحجم بعض الذين ظلمهم في العمل عن نطقها، وقد يستكثرها عليه من كان ينافسه على منصب أو صفة.

صحيح أن الموت يفتح باب الشهرة، ويغلق باب الحسد، كما تقول الحكمة، ولكنها حكمة للعظماء فقط، وهو بعيد كل البعد عن العظمة، وعن الحكمة أيضاً. عرف أنه في الساعات القليلة المتبقية من عمره لن يستطيع أن يحقق شيئاً عظيماً، ومن ثم لن يستطيع أن يقول كما قال «كونفوشيوس» قبل أن يسلم وجهه: «لقد علّمت البشر كيف يعيشون»، وعلم أن



نهائيه لن تتوج أعماله، كما قال «شكسبير»، وما زاد طينته
بلّة أنه تذكر أنه سيرحل من هذه الدنيا، وهو مدين لشركة
السيارات.

في آخر لحظات حياته طلب من أمّه أن تكون إلى جانبه،
مثلما كانت إلى جانبه حينما ولد، وطلب من أبيه، عندما
يسمع آخر تأوّه له أن يفرق صدقة على الممرضات، مثلما فعل
عندما سمع أول صرخة له، وطلب أيضاً من زوجته أن تخبره
عن الفصل الذي تدرس فيه ابنته.

تدبير: جيد أن تتقن، وتخلص في عملك، ولكن الشيء السيئ
هو استغرافك في العمل بشكل ينسبك أولويات حياتك.

